

مدخل نقدي ساخر لعقيدة وحدة الوجود

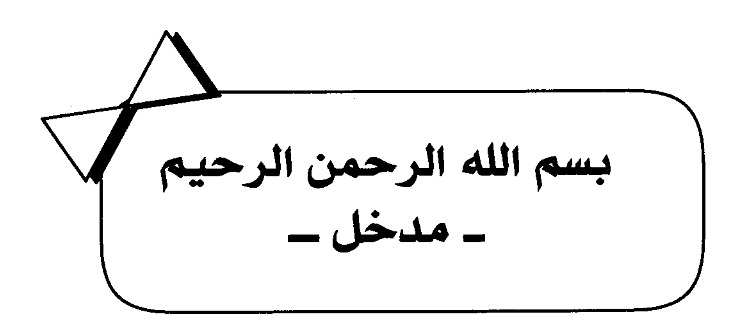
(مقدمة كتاب نعمة الذريعة في نصرة الشريعة)

الكاتب



أبو الفضل محمد بن عبد اللَّه القونوي

فصول



بسم الله الرحمن الرحيم
ـ مدخل ـ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فأكثرَ أهلُ العلمِ مِن الأئمة ـ أئمةِ الشريعة الإسلامية ـ مِنْ بَيَانِهِم نُكْرَ مَذْهَبِ الوجودِ الواحدِ. وقد أوْفَوْا النَّقضَ على مُعْتَقَدِهِ والإِزْرَاءَ بِهِ، وأوضحوا ـ بما لا ريب فيه من الوضوحِ ـ كُفْرَ مَنْ تَمَذْهَبَ بهذا المذهب.

وأبدعُ مَنْ أعْرِفُ من أولئك الأعلام: أبو العباس ابن تيمية رحمهُ الله تعالى، ذاكَ الجِهْبِذُ الوَرِعُ!

فقد كان ـ بحقٍ ـ المُشَخِّصَ لهذا المرضِ، والمحلِّلَ له، ثم المُعَالِجَ لأدوائِهِ بما كتبَ مِن نفائسِ الردودِ عليهم.

وقد أدَّاه ذلك لمعاداةِ الوجوديةِ في عصره وبعدَ عصرِهِ إلى يومِ الناسِ هذا.

ومِنْ أبرَزِ أعدائِهِ الذين ظهروا في الوقت القريبِ، وأسْدَلُوا على وجوههم أقنعةَ التنزيهِ، عدوُّ أهلِ الحديثِ: زاهد الكوثري!

فقد كان متستِّراً بالعقيدةِ الماتريدية، مُظهِراً لها، وتلك تَرَى ـ وإنْ تَنَاقَضَتْ ـ التفريقَ بينَ الخالِقِ والمخلوقِ، مُبْطِناً لعقدِ القولِ

بالوجودِ الواحدِ ـ مَذْهبِ شيخِهِ الأكبرِ الذي يُقَدِّسُ روحَهُ وسِرَّهُ!

ولذلك عَادَى أبا العباس، وجَعَلَتْ بِغْضَتُهُ له ولأهل الحديثِ، تَنْضَحُ مِنْ خَلَلِ مَا سطَّرَ! فكان قَمِناً بأَنْ يكونَ جَهْميَّ عصرِهِ المُتَفَحِّمَ!

ولأجلِ وجوديتهِ الباطنةِ، وماتريديته المعلنة غَدَا الخِلافُ بينه وبين خصمِ الوجوديةِ العلامةِ التركيِّ: مصطفى صبري رحمه الله، منابذةً وسِبَاباً كوثرياً، أخَّرهُ إلى أنْ ثَقُلَ المرضُ على الشيخ صبري، وأقعده عن الرد.

ولِمَنْ عَظُمَ لَدَيْهِ أنْ يُتَّهَمَ الكوثريُّ بالوجودية أقول:

هناك رَجُلاَنِ أدْرَكَاهُ بمصر، وحَضَرَا مجلسهُ، هما: الأستاذ محمد أمين أوغلو وأخوه أحمد يسكنان هذه الأيامَ قُونية، حدَّثاني غيرَ مرةٍ، بأنَّ خالهما الشيخَ علي القدسي النقشبندي ناقش الكوثريَّ في أنَّ النقشبندية أهْلَ وَحْدة شهودٍ، لا وحدةِ وجودٍ، والكوثريُّ يأبى إلا أنهم وجوديةٌ. فلما طالَ الحديثُ، وعاند الكوثريُّ، قال علي القدسي في معرضِ التعريضِ بأساسياتِ المذهب:

إذا إيـذنْ لـي فـسأذهـبُ لـقـضـاء حـاجـتـي!

فكأنما ألْقَمَهُ الحَجَرَ! واحْتَدَّ غضبُه مما سمِعَ.

ومَنْ طالبني مزيداً من الدليل، فعليه بكتابيه: ولعلهما أولُ وآخِرُ ما كتب:

(إرغام المريد) و(الاستبصار).

فانظرْ فيه ـ أيها المتشكك ـ ينكشِفُ لكَ بَعْضُ خبايا حِقدِهِ على السلفية.

وقد سألتُ تلميذَ الكوثريِّ والشيخ صبري: الأديبَ الشاعرَ الشيخَ

علي علوي إبراهيم بالمدينة النبوية، وهو بَلَدِيُّ علي القدسي، ويعرفهُ: هل تَتَّهِمُ القدسيَّ ومَنْ أَخْبَرَ عنه بالكذب على الكوثريِّ في خَبَرِ ذاكَ النَّقَاشِ؟

فقال: لا أظنهم يستحلون الكذبَ.

وَقَدْ بَدَا لي أنَّ الردودَ العلمية على أهْلِ وحدةِ الوجودِ قد كَمُلَتْ بما سطَّره أبو العباس ابن تيمية في كتبه. ومَنْ جاء بعده من علماء المذاهبِ الأربعةِ فلا يزيدُ المرءُ ـ اليومَ ـ إنْ ردَّ عليهم بغير النقلِ عنهم.

والذي أقترحه على المعاصرين من الكُتَّابِ أنْ يستلمَ الرايةَ ـ رايةَ الردِ عليهم ـ كُتَّابُ الأدبِ السَّاخِرِ في العالم العربي، وغير العربي!

هذا؛ لأنني أرى أن في كلام ابنِ عربي مُنَظِّرِ المذهبِ ـ مادةً خِصْبةً للسَّخَرِ!

على أنْ ينضبطَ السَّخَرُ بما لا يجوزُ أنْ يُدَاخِلَهُ مِنْ أُمُورِ العقيدة.

كيف لا؟! وهو المذهبُ القائلُ بأنَّ كلَّ الوجودِ ـ في الحقيقةِ ـ هو الله، وإنما العقلُ والعادةُ والعُرْفُ هي التي تَهِمُ فلا تَعْرِفُ الأشياءَ على ما هي عليه، وتنخدِعُ بالمظاهِرِ والمَجَالِي!

أرى أنه يمكنُ الإفادةُ مِنْ هذا الكلام، وما تفرَّعَ عنه في رواياتٍ ساخرةٍ، ومسرحياتٍ هَزْلِيَّةٍ ـ إنْ كانتْ جائزةً! ـ مِنْ تلك التي تدخلُ في تصنيفِ (اللامعقول) وهي قَصَصٌ لا يربطها العقلُ ـ كما يريدُ الصوفيةُ الوجوديةُ ـ فالقاتلُ في الرواية ـ يكون عَيْنَ المقتولِ، والفَاعِلُ للفحشاءِ عَيْنَ المفعولِ به، والمسروقُ والسارقُ والسَّرِقةُ عينٌ واحدةٌ!

ثُمَّ سَائرُ البناءِ القَصَصيِّ العَابِثِ يُبْنَى على هذه المتناقضات!

ولك أنْ تَتصوَّرَ: كيفَ تكونُ السخريةُ والطَّنْزُ، إذا تناولَ كُتَّابُ أَعْمِدَةِ الصُّحُفِ قضاياهُمُ السياسيةَ الإقليميةَ، وغيرها من هذا المنطلقِ!!

إنها ـ لَعَمْرُ الله ـ كافيةٌ في التجديدِ لأدبٍ ساخرٍ، وبَيِّنةٌ تصْرُخُ ـ في الوقتِ نفسِهِ ـ بهَزْليةِ المذهبِ، إذا أُخِذَ وجْهةً جِدِّيَّة!

وقد حاولَ كثيرٌ من المدافعين عن ابنِ عربي مِن التركِ والعربِ وغيرهم ـ أن يُفَرِّقُوا بين مَذْهَبِهِ ومَذْهبِ مُقَلِّدِيه في الغَرْبِ ـ مِنْ فَلاَسِفَةِ الأوروبيين (كإسبينوزا) ـ مثلاً ـ بما لا يُعْتَدُّ به من الفروقِ.

فقد كان قدماءُ الوجوديةِ ـ مِنْ أمثالِ: الجاميِّ والنابُلْسِيِّ ومَنْ يَقْرُبُ مِنْ زَمَانِهما ـ يَرَوْنَ هذا تحقيقاً خاصاً توصَّلَ إليه الصوفيةُ مِنَ المسلمين.

وأما المعاصرون (لإسبينوزا) في الشرق، فقد كانوا يجهلون أن هناك يَهودياً هُولندياً يُشاطِرُ شيخَهُم الأكبرَ في الحقيقةِ التي توصَّلَ إليها، وَبَلَغَ مِثْلَهُ إلى لُبِّ اللُّبِّ (وحدة الوجود)!

كانوا يَجْهَلُونَ ذلك؛ إذْ لم تُتَرْجَمْ كتُبُه، وكُتُبُ أمثالِهِ إلى العربية أو الألْسُنِ الشرقيةِ بَعْدُ. لقد كان تطابقاً مُؤْذِناً للعُقَلاءِ، بأن مذهبَ الوحدةِ هذا داءٌ مَنْ أُصِيبَ به ظهرتْ عليه عوارضُ متشابهةٌ لكلِ مُبْتَلَىً به! يقولُ الدكتورُ إبراهيم مدكور: ... قَلَّ أَنْ نَجِدَ توافقاً في الرأي إلى هذا الحد.

حتى بَيْنَ الأستاذِ وتلميذِهِ!

فابنُ عربي و(إسبينوزا) يعتنقانِ معاً مَذْهَبَ وَحْدَةِ الوجودِ، ويُصَوِّرَانِهِ تصويراً يكادُ يتفِقُ في التفاصيلِ والجزئيات! فضلاً عَنِ الأصولِ والمبادىء ـ فهما يُقرِّرَانِ: أنَّ العَالَمَ شيءٌ واحدٌ!

وأنه هو الله جلَّ شَأْنُهُ!

ويقولانِ: بواحِدِيَّةٍ، لا تَعَدُّدَ فيها، ولا كَثْرَةَ، ولا خَلْقَ، ولا صُدُورَ!

ويقولانِ ـ في الوقتِ نفسِهِ ـ بألوهيةٍ شامِلَةٍ، تستوعِبُ الكونَ كُلَّهُ!

فكلُّ شيءٍ في العالمِ واحدٌ. والله هُوَ الكُلُّ في الكُلِّ!!

وهذا العَالَمُ خاضِعٌ لقانونِ الوجودِ العَامِّ، كما قالَ ابنُ عربي أو لضرورةِ الطبيعةِ الإلهيةِ كما قال (إسبينوزا)(١).

فلما رأى وجوديةُ الشرقِ ـ أواخِرَ القَرْنِ الميلادي التاسع عشر ـ هذه الحقيقةَ، أخذتْهم الصاعقةُ، ثم لما رَجَعَتْ إليهم، عقولُهم أو بعضُها، رَأَوْا أَنَّ مِنْ أكبرِ السقوطِ والخِذْلانِ لمذهبهم أنْ يُشارِكَ مُلْحِدٌ يهوديٌّ ـ كفَّرَهُ اليهودُ أنفسُهم ـ شَيْخَهُم الأكبرَ ابنَ عربي في قضايا المذهب عَيْنِهِ (!) هذه المُشَارَكَةَ. فَجَعَلَ كثيرٌ منهم ـ مِنْ أمثالِ إسماعيل فَنِّي ـ وهو أَحَدُ الذين رَدَّ عليهم مصطفى صبري ـ وفريد بك (كام) من الترك، ومِنَ المعاصرين: الدكتور حسام الدين أردم أستاذِ الفلسفةِ بقونية، ومن العربِ: الدكتور مصطفى محمود المصري المعروف، وغيرهم، جعلوا ـ جميعاً ـ بَعْدَ الوقوفِ على هذه الحقيقة المُرَّةِ، يُفَرِّقونَ بينَ مذهبِ الصوفيةِ من أهلِ وحدةِ الوجودِ، وبين أَضْرَابِهم في الغربِ، فقالوا عن الشرقيين: إنهم أهلُ وحدةِ وجودٍ، وعنِ الغَرْبيين: إنهم أَهْلُ وَحْدَةِ الموجود (!) أوِ الوجوديَّةُ الماديَّةُ!

وكلُّ ما جاؤوا به لا طَائلَ تَحْتَهُ أَوْ وَرَاءَهُ!

---

(١) مِنْ مقالٍ له بعنوان: (وحدة الوجود بين ابن عربي وإسبينوزا) ص ٣٧٨، الكتاب التذكاري بمناسبة ميلاد ابن عربي، ١٩٦٩م ـ القاهرة.

فَهِيَ لا تَعْدُوا أنْ تكونَ فُرُوقاً ثقافيةً بينهم، والحقُّ أنهم مُسْتَوونَ، ومتفقون في الأَسَاسِ.

كِلاَ الفَرِيقينِ لِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ عَنِ الله ـ تعالى وتَبَارَكَ عمَّا يقولُه الملحدون عُلُواً كبيراً ـ العَلِيُّ على ماذا؟ ومَا ثَمَّ غيرُهُ؟

ويقولون: سبحانَ مَنْ أَظْهَرَ الخلائقَ وهو عَيْنُها!

وكلاهما ينفونَ عن الله ـ تعالى ـ صفةَ العلوِّ الرحمانِيِّ، والمُبَايَنَةَ للمخلوقات.

وهذا هُوَ أُسُّ البَلاَءِ الذي أضلَّهم، وأضلَّ غيرَهم مِمَّنْ بَقِيَ مُتَذَبْذباً مِنَ الأشاعرةِ والمَاتُرِيديةِ الذين هم لا إلى الوجوديةِ يَرْكَنُونَ، ولا إلى السلفيةِ يُسْرِعُونَ!!

وصاحبُنَا الحلبيّ ـ رحمه الله تعالى ـ أحْسَنَ في الرد عليهم، بَيْدَ أنه لم يتنبَّهْ لهذا الأساسِ الذي تنبَّهَ له أبو العباس ابن تيمية ـ أجْزَلَ الله مثُوبتَهُ ـ وغيره مِمَّنْ حكَّمَ عَقْلَهُ الصحيحَ، وشَرْعَ ربهِ القويم في علاجِ الموضوع. وَسَيَلْحَظُ القارئ أن كِتَابَهُ الذي نمتدحُهُ (نِعمَةُ الذريعةِ في نَصْرَةِ الشريعة) لم يَخْلُ من سُيُولِ الغَضَبِ التي تَدَفَّقَتْ مِنَ المُؤلِّف ـ صَاحِبِنَا ـ على ابن عربي، وهو يُنَاقِشُهُ، فهي سُيُولُ غَضَبٍ لله تعالى حينما انتهَكَ الأبْعَدُ ـ ابنُ عربي حُرُمَاتِ الله عزَّ وجلَّ.

وهكذا فَعَلَ التفتازانيُّ حِيْنَ عَرَضَ في ردِّهِ على صاحبِ «الفُصوصِ» ـ ابنِ عربي ـ بِرَدٍّ على مَثِيلِهِ، وتِلْمِيذِهِ ـ كما قِيلَ ـ جَلاَلِ الدينِ الرُّومِيِّ، الشاعرِ المعروفِ، والمُعَظَّم عِند الغافلينَ عن وجوديتهِ، ومُجُونيَّاتِهِ، المُنْبَثَّةِ في شِعْرِه.

قال التفتازانيُّ: (وقد اتخذَ الجلالُ الروميُّ مِنْ هؤلاءِ[1]: الشَّمْسَ

(١) يعني أهل وحدةِ الوجود.

التبريزيَّ[1] إلهاً حيثُ قَالَ ـ بالفارسِيَّةِ:

شـــمـــس مَـــنْ وخـــــداي مَـــنْ
عـــمـــر مَـــنْ وبـــقـــاي مَـــنْ
ازرتـــو بـــحـــق رسِـــيـــده أم
أي حـــق حـــق كـــذار مَـــنْ

ترجمتُه بالعربية: شمسي وإلهي، عمري وبقائي مِنْكَ وَصَلتُ إلى الحقِّ يا حقُّ المؤدي لحقّي.

فأطلقَ اسْمَ الإلهِ والحقِّ على التبريزيِّ!!

وحاصِلُ كلامِهِ أنه يقولُ للتبريزيِّ: أنتَ إلهي الذي أوْصلتني إلى الحقِّ، وأنتَ الحقُّ الذي أدَّيْتَ حقِّي، حيثُ علمتني مذهبَ الوجوديةِ، وعرَّفتني أنك وجميعَ الممكنات إلهٌ.

ولولا أنتَ لكنتُ أعتقدُ كما يعتقدُ أتباعُ الرُّسُل والأنبياء من الأئمة والعلماء، والجماهير والدَّهْمَاءِ: أنَّ الله ـ تعالى ـ هو غيرُ وجودِ الكائناتِ، خَالِقٌ للمخلوقاتِ، موجِدٌ للموجوداتِ الحادثةِ على ما ثبتَ بقواطعِ العَقْلِ والآراءِ، ونَطَقَ به الكُتُبُ المنزَّلةُ من السماءِ، وأجْمَعَ عليه جميع الرسلِ والأنبياء[2]، وكُنْتُ من القاصرين الذاهلين، لا مِنَ المحققينَ الواصلين(!) ولا يخفى على آحادِ معاشِرِ المسلمينَ ـ فضلاً عن أئمة الدين، ورؤساء الحقِّ واليقين ـ أنَّ مَنْ تَدَيَّنَ بهذا الضلالِ

---

(١) شمس الدين التبريزي ضالٌّ وجوديٌّ حُلوليٌّ: عَشِقَهُ الجلالُ الرومي، ولهما قصةٌ تطول.

(٢) نَقْصٌ وتَنَاقُضٌ عظيمينِ أنْ لا يُضيفَ التفتازاني إلى كلامه هذا: (وأن الله مباينٌ لمخلوقاتِهِ، غيرَ مختلطٍ بهم أو سَار بذاتِهِ فيهم، وأنه فوقَ العرشِ عالٍ بذاته على الخلق أجمعين). إذْ بهذين العَقْدَينِ السلفيين يقطعُ طريقَ كُفرِهم، ويتبعُ الكتابَ والسنةَ، كما فهمهما الرعيلُ الأولُ واعتقدُوهُما.

المبينِ، وتجنَّح بهذا المذهبِ الباطلِ اللعينِ، فقد سجَّلَ على نفسِهِ ـ وإنْ عَبَدَ عِبَادَةَ أهلِ السمواتِ والأرضِ، أو ظَهَرَ عليه خوارقُ العاداتِ ـ بأنَّهُ أكْفرُ الكافرينَ، وأخْسَرُ الخاسرين، وإياكَ أنْ تُصْغِيَ إلى ما يقوله أتباعُه الذابُّونَ عنه مِنْ أنَّ صُدُرَ هذا الكلامِ وأمثالِهِ عنه إنما هو حالُ غَلَبَاتِ الوَجْدِ والسُّكْرِ. . .).

ثم قال[1]: (ثم إنَّ الزنادقةَ يتمسكون بهذا البيتِ وأمثال، التي هي هُذَاءُ المَخْلُولين، وهَذَيَانُ المُلْحِدين في اتِّخَاذِ شياطينِ الإنسِ إلهاً، ويذرُون وَرَاءَ ظُهُورهم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ولا يلتفِتُونَ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾. فلا ينفعُ مع هؤلاءِ الجهلةِ السفلةِ الكلامُ، وإنما النافعُ معهم العَضْبُ والضربُ بالحُسَامِ المَشْرَفيِّ الصمصام. . .).

قلتُ: هذه الغَضَبَةُ الشرعيةُ من التفتازاني لها مثيلٌ عند صاحبنا الحلبي، حيثُ قال ـ وهو يخاطبُ ابنَ عربي في هذا الكتاب (نعمة الذريعة في نصرة الشريعة) ـ: (فلا يفيد معكَ إلا الضربُ الوجيعُ)[2].

وهذا يذكِّرُني بفتوى لأبي السعود صاحب التفسير، الذي ورده سؤالٌ بالتركية هذا معناه: ما يلزم شرعاً زيداً من الأئمة الذي يقول: إنْ كان المنصور (الحلاج) كافراً بحَسَبِ الشرعِ، فإنه بحسبِ الحقيقة مؤمِنٌ كاملٌ، ودعواهُ صادقةٌ في الحقيقةِ؟

(١) من رسالةٍ في الرد على أهل وحدة الوجود. طبعت في اصطمبول سنة ١٢٩٤هـ. ويزعمُ إسماعيل فني الوجودي التركي ومَنْ لفَّ لفَّهُ أنها للعلاء البخاري.

(٢) وقال في موضعٍ آخر: (فلا يفيد فيك كما في حزبك السُّفْسَطائية إلا الحرقُ بالنارِ ونحوه).

ما يلزمه إنْ كان اعتقادُهُ على هذا؟

فقال ـ لله دَرُّهُ ـ باختصارٍ فيه مَعْنًى لا يخفى على القاريء:

الجواب: يَلْزَمُهُ مَا لَزِمَ المنصور[1]!!

ويعني ـ رحمه الله ـ أن يُقَدَّمَ فتُضْرَبُ عُنُقُهُ ـ بَعْدَ اسْتِتَابته ـ فحكَمَ عليه بالردةِ عن الإسلام.

ولستُ أدري ما كانَ سيقولُ الإمامُ الشافعيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ الذي حكم على أهلِ الكلامِ أن يُضْرَبوا بالجريدِ والنعالِ، ويُطَافُ بهم ويُشَهَّر، ما هي الكلماتُ التي كانتْ تصدُرُ عنه، لو وقَفَ على كُفْرِ الوجودية الصريح؟!

هذ وإنْ مِنْ واجبِ كُلِّ مسلم وَاعٍ للأخطارِ التي تُهَدِّدُ دينَهُ وإخوانه المسلمين، أنْ يُحَذِّرَ الذين يُحْسِنُونَ الظَنَّ بالوجوديةِ المُرَّاقِ، ويَبْذُلَ ما في وُسْعِهِ لبيانِ ضلالهم في الصحفِ والمجلاتِ والكتب، فإنَّ المستشرقين والعلمانيينَ والوجوديينَ حريصون على إحياء كُتُبِ ومَفَاهيم هذه الطائفةِ. يَبْذُلُونَ الأموال، ويَعْقِدونَ المؤتمراتِ لأجْلِها. والمُسْتَغْفَلُونَ من الطُّرُقيةِ الصوفيةِ يُشَاركونهم، لانْغِمَاسِهم في الجَهْلِ والبدع.

فنسألُ الله تعالى أنْ يَعْصِمَنَا وأُمَّةَ محمد صلى الله عليه وآله وسلم من شرورهم، وأنْ يَرُدَّ كيد الأعداء في نحورهم، إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه، والحمد لله رب العالمين.

وكتب أبو الفضل محمد بن عبدالله القُونوني

في ٢٨/٨/١٤١٨هـ

---

(١) منتخبات من فتاوى أبي السعود. بالتركية العثمانية. جمعها محمد أرطغرل ص١٩٢ اصطمبول ١٩٩٣م ـ دار أندرون.